

أم لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا فداءها كل أم منهم وأب  
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها كسرى وصدت صدودا عن أبي كرب  
بكر فما افتترعتها كفّ حادثة ولا ترقّت اليها همّة النّوب  
من عهد اسكندر أو قبل ذلك قد شابت نواصي الليالي وهي لم تشب

من مميّزات شعر أبي تمام دقّة المعاني وعمق الافكار ، والواقعية وسعة الخيال ، والمبالغة ، والكثرة من استخدام الأدلة المنطقيّة ، وكثرة المحسنات المعنوية ، وكثرة الاشارات التاريخية في شعره ، وبروز الفلسفة والمنطق ، والغموض ، والحكمة .

### البحري

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد ، طائيّ الأب شيباني الأم ، غلب عليه لقب البحري نسبة الى عشيرته الطائية ، بحتر ، ولد سنة ٢٠٤هـ بمنجب الى الشمال الشرقي من حلب على الطريق المؤدية الى الفرات ، توفي سنة ٢٨٤هـ .

وليس لدينا أخبار عن هيأته وصورته إلا ما روي عنه من أنّه كان أسمر طويل اللحية . وقد نشأ في أحضان عشيرته يتغذى من فصاحتها ويبدو أنّه اختلف مبكرا الى الكتّاب ، فحفظ القرآن ، أو شطراً كبيراً منه ، كما حفظ كثيراً من الأشعار والخطب ، واختلف حين شبّ الى حلقات العلماء في المساجد يأخذ عنهم اللغة وشيئاً من الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام ، واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة ، وسرعان ما أخذ يكثر من نظمه في بعض من عرفهم من عامة أهل بلدته ، وامتدّ به طموحه فتجاوز به بلدته الى بلاد أكبر من حولها ، إذ نراه ينزل حلب ، وهناك تعرّف على (علوة) التي شغفته حباً .

واتسع برحلاته الى حمص ، وكأنّما كان السعد معه على ميعاد ، فإذا هو يسمع بأنّ أبا تمام بها والشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فعرض عليه شعره ، فأقبل عليه وقال له : أنت أشعر من أنشدني فكيف حالك ؟ فشكا إليه سوء حاله ، فكتب الى أهل معرة النعمان بشاعرية البحري وطلب منهم أن يكرموا فأكرموه واستقبلوه استقبالاً حسناً ووظفوا له أربعة آلاف درهم .

ومن صفات البحري أنّه عديم الوفاء كافر للإحسان ، فحين يقلب الدهر معرفه لبعض ممدوحيه أو حين يسبق إليهم الموت ، نراه يسارع الى الوقوف مع خصومهم الجدد أصحاب الحكم والسلطان ابتغاء المال والنفع ، مثل موقفه مع الخليفة المستعين الذي هجاه هجاء مقذعا بعد أن كان يمدحه وينال جوائزته . وقد مدح البحري عددا من الخلفاء العباسيين ، ولكن الخليفة (المعتز) كان أقربهم الى نفسه ، فأكثر من مديحه ووصف قصوره وتسجيل الأحداث لزمّنه ، ومدح معه ابنه (عبد الله) وتوثقت بينهما الصداقة . وكان البحري قد أثرى ثراء فاحشاً منذ عهد المتوكل ، فانه نثر عليه أموالاً جمّة واقطاعات عديدة ، فضلاً عمّا أغدق عليه الفتح بن خاقان وغيره من رجال الدواوين ، إلا أنّه عى الرغم من ذلك كان شديد الطمع والالاح في الطلب .

وكان لا يبارى في ثقافته بالشعر ، ممّا جعله يضع فيه ديوان الحماسة مشابهة لاستاذه أبي تمام في حماسته المشهورة ، ويقول ابن النديم إنّ له كتابا ثانيا في معاني الشعر ، غير أنّ هذا الكتاب سقط من يد الزمن ، والكتاب الأول كافٍ في تصوّر إكبابه على الشعر القديم إكباباً منقطع النظر ، وبالمثل كان يكبّ على دواوين الشعراء المحدثين ، ممّا أتاح له ثقافة شعرية واسعة ، إلا أنّه لم يخضع شعره للمنطق والفلسفة كأبي تمام ، وكان هو بنفسه يصرّح بذلك .

وهناك ظاهرة مهمّة في شعره وهي أنّه جارى أستاذه أبا تمام في الاحتفال بألوان البديع واستظهارها في أشعاره .

ولكن اذا كان البحرني لم يستطع أن يحقق لنفسه هذا المدى الرائع من الشعر والفن ، بسبب ضعف ثقافته الفلسفية ، فإنه استطاع أن يحقق لنفسه مدىّ مقابلاً لا يقلّ روعة ، وهو مدى الجمال الصوتي البديع ، بحيث استطاع أن يرتفع باصطفاء الكلمات والملاءمة بينها في الجرس ، بل بين حروفها وحركاتها ملاءمة رفعتة الى مرتبة موسيقية لم يلحقه فيها سابق ولا لاحق .

وكان البحرني إذا سُئل عنه وعن أبي تمام قال : (( جيده خير من جيدي ، وريثي خير من رديته )) ، وهو يريد بجيد أبي تمام معانيه وأخيلته الدقيقة التي لم يكن أحد من أهل زمانه يستطيع أن يخلق في آفاقها ، أمّا رديته فيريد به بعض أبياته التي يضطرب فيها اللفظ لأتفه لم يكن يعنى بألفاظه وأصواته عناية البحرني .

والمديح أهم موضوع استنفد شعر البحرني ، فقد عاش يمدح الخلفاء العباسيين من المتوكل الى المعتضد ووزارهم وولاتهم وقوادهم وكتّابهم ، وكان طبيعياً لذلك أن ينتصر للعباسيين ضد خصومهم العلويين ، وأن يتغنّى بذلك في أشعاره ، حتّى يثبت ولاءه لهم وأتفه يقف في صفوفهم مدافعاً عنهم بمثل قوله للمتوكل :

شرفا بني العباس إنّ أباكم  
عمّ النبيّ وعيصه المتفرّع  
إنّ الفضيلة للذي استسقى به  
عمر وشفّع إذ غدا يستشفّع  
وأرى الخلافة وهي أعظم رتبة  
حقاً لكم ووراثه ماتنزع  
أعطاكموها الله عن علم بكم  
والله يعطي من يشاء ويمنع

فالعباس جدّ العباسيين وعمّ الرسول ( صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم ) من العيص ومنبت الشجر الضخم ، ويريد أنّه من الأصول بينما الإمام علي بن أبي طالب ( عليه السلام ) من الفروع .

وكان البحرني ينتهز كل فرصة ليدبج قصائده في الخلفاء العباسيين ، فمن ذلك قصيدته في وصف موكب المتوكل في اثناء خروجه لاداء الصلاة في عيد الفطر ، وقد صور في فاتحتها قوّة الإسلام حينئذ مجسّمة في جيش ضخم كان يحفّ بالمتوكل وكأنّه جبال تتحرّك ، فترجف الأرض وتهتّر لضخامته وعدده الكثيفة ، ويتحدث عن جلال الموكب وما استدار حول المتوكل من هالات قدسية ومن محبة للشعب وإعظام ، يقول :

افتنّ فيك الناظرون فإصبع  
يومي اليك بها وعين تنظر  
يجدون رؤيتك التي فازوا بها  
من أنعم الله التي لا تكفر  
ذكروا بطلعتك النبيّ فهلّوا  
لما طلعت من الصفوف وكبروا  
حتى انتهيت الى المصلّى لايسا  
نور الهدى يبدو عليك ويظهر  
فلو أنّ مشتاقاً تكلف فوق ما  
في وسعه لسعى إليك المنبر

وفي ديوانه أهاج مختلفة ترجع إمّا الى حرمانه من جائزة ، وإمّا الى كفران صنيعه عند بعض معاصريه ، وإمّا الى منافسة بينه وبين الشعراء ، ولا سيما من كان منهم يتعرّض لشعره بالنقد اللاذع .

وبالمثل الفخر عند البحرني ضعيف ، وهو حقاً يفخر في بعض قصائده بأله وعشيرته بحتري وقبيلته طيء ناعتا لهم بالكرم والشجاعة والكثرة والحصافة ، ولكنه لا يصدر ذلك عن ايمان قوي بالمجد ، وكأتما كانت عصبية القبيلة ضعيفة ، بل لقد كان إحساسه بعرويته ايضاً ضعيفاً ، ومثال ذلك قصيدته في إيوان كسرى ويكاؤه لأمجاد الفرس .

وهو كذلك يعدّ طائفة من هؤلاء الملوك الفرس وفي مقدّمتهم يزيدجرد ، وكسرى وأردشير ، ويصوّر ما كان لهم من أبهة الملك وما كانوا يغدون ويروحون فيه من السندس والحريّر ، وحتّى العاطفة الإسلامية بدورها نجدها ضعيفة عند البحثري ، إذ امتدح كثيرين من النصارى .

واشتهر البحثري بإجادته للغزل ، ومرّ بنا أنّه أحبّ في شبابه ( علوة) الحلبية ، وظلّت نكراها لا تبارحه ، وظلّت تستولي على قلبه ، وكانت قد صبت إليه كما صبا إليها وبادلته ودّاً بود . وكانت لدى البحثري قدرة بارعة في وصف مظاهر العمران ، بما أتيج له من دقّة في التصوير والتعبير ، ولم يكد يترك قصراً بناه المتوكل دون أن يصفه موجزاً أو مسهباً ، وبالمثل وصف ما بناه الخلفاء بعده من قصور ، ومرّ بنا وصفه لإيوان كسرى ، ومن القصور التي أجاد في وصفها قصر الكامل الذي بناه المعتز .

### أبو الطيّب المتنبّي

هو أبو الطيّب أحمد بن الحسين من عشيرة جعفي المذحجية اليمينية ، ولد سنة (٣٠٣هـ) بحي كندة في الكوفة ، ولذلك يقال له الكندي ، أمّا أمّه فكانت همدانية ، فهو يميني أبا وأما ، وذكر بعض خصومه وهجائيّه أن أباه كان سقاء ، وأن اسمه (عبدان) ، ولم يعر (ابن خلكان) هذه الدعوى اهتماماً ، وهي دعوى ملفقة كيداً للشعر الفذ وحسداً ، فكل شيء في سيرته يؤكّد بطلانها ، فيقال : إن أباه ألحقه بكتّاب أبناء الأشراف ، ويبعد أن ينتظم في سلك هؤلاء الأبناء وأبوه سقاء يحمل الماء لأهل الحي القاطن به . وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وهو في نحو الثامنة من عمره ، وما يكاد يبلغ التاسعة حتّى يغزو القرامطة الكوفة ويسفكوا الدماء ويسبوا النساء ، ويفرّ الناس منها جزعاً ، ويفرّ به أبوه الى بادية السماوة بين العراق والشام ويظلّ المتنبّي نحو عامين أو ثلاثة يتردّد في القبائل ويتغذّى بلغتها ، ويعود الى الكوفة في سنته الثانية عشرة ، ولا تعلم هل كان أبوه لا يزال حيّاً أو أنّه توفّي قبيل عودته أو بعد عودته بقليل ، ويعتقد أن أمّه فارقت الحياة قبل أبيه ، والسبب في ذلك لأننا لانجد لأمه ولا لأبيه ذكراً في ديوانه ، وحاول بعض المعاصرين أن يلقي شيئاً من ظلال الشكّ على نسبه لأنّه لم يذكر أباه في شعره ، وهم يعتقدون أن سبب ذلك هو شعوره بالضعفة من ناحية أسرته وأهله ، ويردّ على ذلك بأنّه كلام غير صحيح لأن كثيراً من شعراء العرب لم يذكروا في أشعارهم آباءهم ولا أمهاتهم ، وليس في ذلك أي دليل على أنّ أسرهم كانت وضيعة .

وحين عاد المتنبّي الى الكوفة في سنّ الثانية عشر ، أخذ يكبّ على ماكان في الكوفة من ثقافات ، فاذا هو يلتهم كتب اللغة التهاماً وكذلك كتب النحو ، ويعتزّف كتب الفلسفة عن طريق ممدوح كوفي له يسمّى (أبا الفضل) وعن طريقه يتعرّف التصوّف ،

وكان أبواه قد توفيا ، وأكثر القرامطة من غاراتهم على الكوفة في سنوات ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٩ هـ ، فرأى الفتى أن يبرح مسقط رأسه الى بغداد ، ومدح بها أحد العلويين ومتصوفاً يسمّى (هرون بن علي الاوراجي) ، ولأنراه يمدح خليفته ولا حاكمها الأعجمي ولا أحداً من قوى السلطان ، وكانما وقف حائلاً بينه وبينهم ماراه بعينه من فساد الحكم وتسلبت الحكام الأعاجم على العرب ، ونراه يحثّ نفسه والعرب من حوله على رفض الاستسلام لهم ، ويبيأس ممّن حوله أن يثوروا معه ضد الفساد والظلم والطغيان ، ويولّي وجهه نحو بوادي الشام ، وحواضرها ويمدح شيوخ البدو وبعض رعاة الأدب في طرابلس واللاذقية ، وهو لا يكفّ عن المجاهرة بالثورة على الحكام الأعاجم الجائرين الذين لا يراعون للعرب حرمة ولا عهداً ولا ذمّة ، فيقول :

لا أدب عندهم ولا حسب

ولا عهود لهم ولا ذمم

ويمضي في دعوته وثورته في بوادي الشام من اللاذقية الى بعلبك ، ويحسّ في أهل ( نخلة ) بالقرب من بعلبك تواكلا وتخاذلا وأنهم لايسارعون معه الى الثأر لكرامتهم المهذرة ، فيستنثروهم بقصيدة ملتهبة يقول فيها :

ما مقامي بأرض نخلة إلا

كمقام المسيح بين اليهود

أنا في أمة تداركها الله

ه غريب كصالح في ثمود

وكان تشبيهه لنفسه في القصيدة بالمسيح وبالنبي صالح ( عليهما السلام ) لأنه ادّعى في أن يتّهمه بعض معاصريه باعائه النبوة ، وبالغوا فزعوا أنه ادّعى لنفسه قرآنا ذكروا بعض فقر منه ، وذلك كلّه غير صحيح ، فقد كانت ثورته سياسية قومية لادينية ولاقرمطية كما توهم بعض الباحثين .

أمّا لقبه المتنبّي فيرى الدكتور (شوقي ضيف ) هو الذي لُقّب نفسه به ، أو لعل بعض المعجبين بشعره هم الذين لُقّبوه به ، رمزاً لعبقريته الشعرية وأنه يأتي في أشعاره بالمعجز الذي ليس له سابقة .

ويترك قرية (نخلة) الى بادية اللاذقية ويتبعه كثيرون لأواخر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ، ويقود ثورة ضارية ، وكان لايزال في العشرين من عمره ، ويقضي ( لؤلؤ ) والي (حمص) من لدن الإخشيد على ثورته ويزجّ به في غياهب السجن ، ويظلّ به نحو سنتين ، وتردّ اليه حريته ، ويعود الى مديح ولاية البلدان الشامية ، ولاسيما ( بدر بن عمّار الأسدي ) صاحب دمشق من لدن بغداد ، وحينما يعجز عن مطلبه ولا يجد سميعة ولا مجيبا لدعوته ، تحدّثه نفسه في سنة ستّ وثلاثين وثلثمائة أن يقدمّ مدائحه لولاية ( سيف الدولة الحمداني ) وكان أميراً لحلب ، واتسع بامارته الى حمص وأنطاكية منتزعا لهما من أيدي الاخشيديين ، فقدمّ المتنبّي مدائحه الى واليه على أنطاكية ( أبي العشائر الحمداني ) ابن عمّه ، فأجزل له في العطاء . ومضى في مديحه ، ويقدم سيف الدولة الى أنطاكية سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، فيمدحه المتنبّي ، ويعجب كل منهما بصاحبه ، ويطلب سيف الدولة منه أن يسطحبه الى حلب وينزل عنده ، ويقول الرواة أنّ المتنبّي اشترط عليه أن لايقبل الأرض بين يديه وأن لاينشده شعره إلاّ قاعداً ، يجيبه سيف الدولة الى شرطيه ، ويظل المتنبّي عنده تسع سنوات ، ينظم فيها مدائح وأشعاراً في أميره، توفّر ديوانا ، وهو ديوان من أنفس دواوين الشعر العربي ، لامن حيث كثرة قصائده فحسب ، بل أيضاً من حيث روعتها ، وقد بلغت نحو أربعين قصيدة واحدى وثلاثين مقطوعة ، واستقرّ حينئذ في نفسه أنه التقى بأهل العرب وحاميهم وپارسهم الذي يمزق جموع الروم شرّ ممزق في الشمال ، وغدا يمزق جموع الحكام الاعاجم من البويهيين في بغداد ، ويردّ للعرب دولتهم المفقودة، فوصف المتنبّي معاركه مع الروم ، ومدحه بمدائح كثيرة ، ورثى أمه حينما توفيت سنة سبعة وثلاثين وثلثمائة.

وحسد الشاعر كثيرون من حاشية سيف الدولة - وفي مقدمتهم أبو فراس الحمداني - على منزلته ، فأخذوا يكيدون له عنده ، وأحسّ المتنبّي بكيدهم ، وأنّ سيف الدولة يستمع إليهم فعاتبه الشاعر بقوله :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي

فيمّ الخصام وأنت الخصم والحكم

ويحاول سيف الدولة مرضاته ولكن الحاشية تظلّ تكيد له ، ومن العجيب أن يستمع سيف الدولة لحساد المتنبّي وهو القائل فيه :

مالي أرى حبا قد برى جسدي

وتدّعي حبّ سيف الدولة الأمم

ويصمّم على الرحيل ، ويرحل الى دمشق ، ويلتقي فيها بأصحاب كافر وأوليائه ، فيغرونه بلقائه في الفسطاط وأنه لا بدّ أن سيقمه واليا على ( صيدا ) أو غيرها من البلدان ، فرأى في ذلك ما يحقق أماله القديمة في

## الروح العربي في العصر العباسي

إقامة الدولة العربية المنشودة ، وينزل بساحته على ضفاف النيل سنة (٣٤٦هـ) ، وينثر عليه كافور أمواله ، فيصارحه المتنبي بقوله :

وما رغبتني في عسجد أستفيده  
ولكتها في مفخر أستجده

ويلوح في غير قصيدة بوعد أصحابه له بأنه سيمنحه ولاية ، ولكن من دون جدوى ، فانتقم منه شرّ انتقام ، استطاع بخبرته في الصياغة الشعرية أن يوجّه له مدائح هي في ظاهرها ثناء ، ولكنها في باطنها هجاء مرّ ، مثل قوله:

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا  
لمن بات في نعمائه يتقلب

وأخيراً فقد أحسّ الشاعر باخفاق رحلته الى مصر وارتحل بليل ، وهجا كافورا هجاء مرّا بمثل قوله:

لا تشتر العبد إلا والعصا معه  
إنّ العبيد لأنجاس مناكيد

وقد غادرها سنة (٣٥٠هـ) أي بقي عند كافور أربعة أعوام فقط ، واتّجه بعدها الى الكوفة مسقط رأسه ، واشترك مع أهلها في الدفاع عنها حين هاجمها القرامطة ، ولعلّ في ذلك ما يقطع بأنه لم يكن قرمطياً يوماً ، ويرسل إليه سيف الدولة بهدية ومعها كتاب بخطه ويردّ عليه بلامية بدیعة يستحثّه فيها على منازلة البويهيين الأعاجم في بغداد وينزلها في سنة احدى وخمسين وتلثمائة ، وفيها يجتمع له كثيرون يأخذون عنه ديوانه ، ويتعرّض له الحاتمى - بايعاز من الوزير المهلبى - لنقد بعض أشعاره ، وتكون في ذلك قطیعة بينه وبين الوزير فلا يمدحه ، ويعود الى الكوفة بعد أشهر ، ويكاتبه ( ابن العميد ) في سنة ثلاث وخمسين وتلثمائة ، متودّداً إليه آملاً في زيارته فيقدم عليه في سنة أربع وخمسين وتلثمائة ، ويمدحه بقصيدة يشيد فيها بالضاد قائلاً في وصفه:

عربيّ لسانه فلسفيّ  
رأيه فارسيّة أعياده

فمفخرة ابن العميد الكبرى فصاحة لسانه وعروية بيانه ، ويستقدمه ( عضد الدولة ) الى (شيران) ويمرّ ببستان ( شعب بؤان) وبرووعه جماله، غير أنّه مع روعته كدّر نفسه لأنه لا يرى أثراً للعروية فيه وفيما حوله من ديار ، مما جعله يفتتح قصيدته بقوله:

مغاني الشعب طيبا في المغاني  
بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربيّ فيها  
غريب الوجه واليد واللسان

ويارح شيران سريعاً ، وفي طريقه بالقرب من بغداد - النعمانية - خرج عليه في أواخر شهر رمضان من سنة ( ٣٥٤هـ ) ( فانتك بن أبي جهل ) في بعض من قطّاع الطرق ، وصرعه هو وابنه ( محسّد ) وغلّامه ( مفلح ).

والمتنبي شاعر العرب العبقرى الفذ الذي ملأ الدنيا وشغل الناس ، وقيلت فيه أقوال مختلفة تدلّ على اعجاب النقاد والجمهور بشعره ، فقليل مثلاً إن شعره كان يطير في البلاد بغير جناح ، وقيل كذلك إنّ المتنبي كان يسير في الجو في حين كان سائر الشعراء يمشون على الارض .

توزّع شعره في ديوانه حسب الترتيب الآتي : الشاميات ٢٥٣ ، السيفيات ١٥٤٠ ، الكافوريات ٥٢٨ ، الفانكيات ٣٥٧ ، الشيرازيات ٣٩٦ .

من صفات المتنبي الأنفة الشديدة والكبرياء القويّة الظاهرة في حبّ السيادة والترفع عن الدنيا ، والصبر ، واحتقار الآخرين .

وتكثر في شعره الحكم والأمثال ، حتّى ليصبح جلاً ما يدور من خواطر في أذهان الناس أمثالاً وحكماً  
ينطق بها في شعره .

وفيما يأتي نصّ للمتنبّي في رثاء ( خولة ) أخت سيف الدولة ، وكانت قد توفيت بعد أن وقعت الجفوة  
بين المتنبّي وسيف الدولة ، يقول :

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب	كناية بهما عن أشرف النسب
طوى الجزيرة حتّى جاءني خبر	فزعت فيه آمالي الى الكذب
حتّى اذا لم يدع لي صدقه أملا	شرقت بالدمع حتّى كاد يشرق بي
تعثرت به في الأفواه ألسنها	والبرد في الطرق والأقلام في الكتب
كأنّ فعلة لم تملأ مواكبها	ديار بكر ولم تخلع ولم تهب
ولم تردّ حياة بعد تولية	ولم تغث داعيا بالويل والحرب
أرى العراق طويل الليل مذ نعت	فكيف ليل فتى الفتيان في حلب ؟

### الشريف الرضي

هو أبو الحسن ، الشريف الأجل ، الملقّب بالرضيّ ، محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن ابراهيم  
بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي ( عليه  
السلام ) وأمّه السيدة فاطمة بنت الحسن بن أحمد بن الحسن الناصر الذي يرجع نسبه الى الأمام علي ( عليه  
السلام ) .

ولد في بغداد بجانب الكرخ سنة ( ٣٥٩هـ ) ونشأ في بيت عزّ وشرف ، وفي بيئة علميّة وأدبيّة ، وتوجّه  
منذ الصغر مع اخيه الشريف المرتضى نحو التعلّم والتتقّف ، وتتلذذ على أساتذة أجلاء كثيرين في مختلف العلوم  
، ومن أبرزهم أبو سعيد السيرافي النحوي المشهور ، وأبو الفتح عثمان بن جني اللغوي النحوي ، وأبو الحسن بن  
أحمد النحوي ، وأبو اسحاق ابراهيم بن أحمد الطبري الفقيه المالكي ، ومحمد بن عمران المرزباني ، والشيخ  
المفيد أبو عبد الله محمد بن محمد المعروف بابن المعلم ، وابن نباته الفارقي .

شبّ الشريف الرضي عالماً شاعراً ، طموحاً الى المجد ، نزاعاً الى العلا ، ولعلّه كان يريد الرئاسة  
لينقذ أمته من السقوط في الهاوية ، ولا سيما بعد أن هان أمر الخلفاء العباسيين وأصبحوا لعبة بيد الأعاجم ، فهو  
القائل :

سأخطبها بحدّ السيف فعلا إذا لم يعن قول أو خطاب

وكان الشريف الرضي الى جانب ما يحمله من اباء وعزّة وشمم ، موصوفا بالعفة والورع والتديّن ،  
ووصف ايضا بالجدود ، وسمت مكانته ، وعلت منزلته عند الخاصّة والعامة ، وقد أمر بهاء الدولة البويهّي أن  
تكون مخاطباته بعنوان : الشريف الأجل ، ثم خلع عليه الرضي ، وشغل منصب نقابة الطالبين ، والنظر في  
المظالم ، وامارة الحجّ ، والنظر في أمور المساجد بمدينة السلام .

عاصر الشريف الرضي ثلاثة خلفاء : المطيع لله ، والطائع لله ، والقادر بالله ، وكانت علاقته بالطائع  
( ٣٦٣ - ٣٨١هـ ) طيبة ، ولاسيما بعد أن أطلق سراح والده من السجن الذي وضعه فيه ( عضد الدولة ) تنفيذاً  
لخطته في القضاء على من يخشى بأسهم على ملكه .

وحيثما جاء القادر الى الخلافة لم تقطع صلته بدار الخلافة ، بل قدّم مديحه لهذا الخليفة وكسب رضاه ، كانت له صلوات ببعض الأمراء والوزراء بحكم مكانته في أسرته ، فمن الأمراء شرف الدولة وبهاء الدولة البويهيين ، ومن الوزراء صاحب بن عبّاد ، وعبد العزيز بن يوسف .

وكان الشريف الرضي دؤوبا في التأليف والتصنيف ، وقد ترك آثاراً جلييلة وقيّمة ، من أهمها : حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، وتلخيص البيان عن مجازات القرآن ، ومجازات الآثار النبوية ، وخصائص الأئمة ، ونهج البلاغة ، وديوان شعره .

توفي الشريف الرضي يوم الأحد السادس من شهر المحرم سنة (٤٠٦هـ) ، وورثه ثلاثة شعراء كبار : الشريف المرتضى ، والوزير أبو القاسم الحسين بن علي ، ومهيار الديلمي .

كان الشريف الرضي شاعراً فصيحاً ، كما كان كاتباً مترسلاً ، وإماماً في النحو واللغة والتفسير ، قال الشعر بعد أن جاوز العشرين من سني عمره بقليل كما ذكر الثعالبي ، واستمر في نظمه طوال حياته .

إنّ أكبر حادثة أثّرت في نفسه أبلغ الأثر هي سجن أبيه في بلاد فارس (٣٦٩-٣٧٥هـ) ومصادرة أملاكه ، فراح يمدح هذا الأب بقصائد كثيرة ، وحينما أطلق سراحه ، ويارح السجن ، ووصل الى بغداد ، رآه وحقق قلبه ، وانهلّت مدامعه فرحاً ، وقابله بقصيدة تنتشج بالسرور .

إنّ شخصية الرضي بارزة في مدائحه ، تظهر شامخة أبية ، تطلب العزّ والرفعة ، وفخره بنفسه ، وزهوه بمقامه وشعره وشجاعته وفروسيته ومضاء عزمه وقوة إرادته ، كثير في شعره ، على نحو قوله في قصيدة حماسية مطلعها :

### نبهتهم مثل عوالي الرماح الى الوغى قبل نموم الصباح

كان الشريف الرضي يعتزّ بقومه ويفخر بأرومتهم ، ويريد لهم السمو والمقام الرفيع ، ويسمّي نفسه ( الفتى العربي ) في بعض شعره .

والشريف الرضي الذي كان نزاعاً الى المجد ، يصبو الى الجمال ، ويتغزّل بالمرأة الحسنة بقلب رقيق

إنّ غزله الجميل المتمثّل بقصائده المعروفة بـ(الحجازيات) في غاية الرقة والعذوبة ، قالها في أماكن لا يحلّ فيها الرفث ولا الفسوق ، وقالها وهو نقيب الأشرف وامام الحجّ ، لكنه نفّس بها عن نفثات صدر اضطربت فيه العواطف ، وجاش بها وبفورانها فما استطاع لها كتماناً ، فأرسلها ترانيم تحلّت بصفاء الروح وسمو العاطفة ، فغفرله معاصروه هتافه للجمال واشادته بصبوات نفسه ولوعات هواه .

إنّ غزله يمتاز بسمو العاطفة ، والوقار والعفة ، الى جانب جمال الانسياب ، وحلاوة الموسيقى ، وهو أقرب فنونه الى البساطة اليدوية التي تتجلّى في شعر العذريين وعشاق الإعراب ، رجالاً ونساءً ، وفيه نفحة من نفحاتهم في الحنين الى المرباع ومعاهد الصبوات ، وقد سار غزله بين عشاق الأدب وحفظوه وردّدوه في محافلهم ومنتدياتهم ، ومن بديع قصائده الكافية التي عارضها كثير من الشعراء ، وهي :

ياظبية البان ترعى في خمائله	ليهنك اليوم أنّ القلب مرعاك
عندك مبذول لشاربه	وليس يرويك إلاّ مدمعي الباك
هبت لنا من رياح الغور رائحة	بعد الرقاد عرفناها برياك

على الرّحال ، تعلّنا بذكراك	ثمّ انتنينا ، اذا ما هزّنا طرب
من بالعراق ، لقد أبعدت مرمّاك	سهم أصاب وراميه بذي سلم
ياقرب ما كذّبت عيني عيناك	وعد لعينك عندي ما وفيت به
يوم اللّقاء فكان الفضل للحاكي	حكّت لآذك ما في الريم من ملح
بما طوى عنك من أسماء قتلاك	كأنّ طرفك يوم الجزع يخبرنا
فما أمرك في قلبي وأحلاك	أنت النعيم لقلبي والعذاب له

وكان الرضي من الشعراء المجيدين في فن الرثاء ، المحسنين في اظهار اللوعة والأسى على الراحلين ، وكثر عنده رثاء أهل بيته، ورثاء الاصدقاء والرؤساء والملوك ، ومن أشهر مراثيه وأصدقها مرثيته لأمه ، وكان كثيراً ما يعبر في مراثيه عن آلامه وهموه ، ويرسل في ثناياها حكماً وأمثالاً تدلّ على نظرات عميقة في الحياة.

وهكذا كان الشريف الرضي متمكناً من ناحية القريض في أغراضه كلها ، وهو يجيد عرض فكرته في بناء سليم ، واسلوب رشيق ، وطرح شيق ، ويحسن التوازن والتقابل بين الألفاظ والعبارات ، كما يحسن اتيان التشبيهات والصور في مواضعها ، وتتجلّى في شعره روح البداوة ممزوجة بروح الحضارة ، ويتميز شعره بضبط عروضي محكم ، وهندسة موسيقية تدلّ على رفاة حسّه ، وبراعته في السيطرة على نظام البيت الشعري وفق القواعد والأصول.

### النثر : أنواعه - خصائصه الفنية

زاد الاهتمام بالنثر منذ انبثاق نور الاسلام وقيام الدولة الجديدة زمن الرسول محمد ( صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم) وأخذ ينمو ويتطوّر ويزداد اتساعاً في عهد الخلفاء الراشدين (رض) ثمّ في دولة بني أمية ، ولاسيما بعد الفتوحات وتوسّع رقعة الحكم الاسلامي شرقاً وغرباً.

وبدأ كثير من الكتاب بتجويد الكتابة واتقانها واطهارها باسلوب جزل متين، وقد كانت في أول أمرها تميل الى الإيجاز الشديد ، واختصار المعاني بأقلّ العبارات وأقصرها ، والتمسك بالأمانة والصدق والصراحة التي درج عليها العرب وأوصى بها الدين الحنيف .

ولمّا قامت الدولة العباسية عظم شان الكتابة وزاد الإقبال عليها بعد أن تفتّحت أمامها مجالات واسعة، وأصبح للكتاب مقام محمود لدى الخلفاء والوزراء والولاة ، وكان للموهبين منهم أثر بارز في تسيير شؤون الدولة السياسية والادارية والمالية .

كان الكتاب في العصر العباسي مثقّفين ثقافة عالية ومزوّدين بصنوف المعرفة ، تراهم يحفظون القرآن الكريم وشيئاً كبيراً من الحديث النبوي الشريف وكلام البلغاء وخطب الصحابة والخلفاء ووصاياهم وقصائد كبار الشعراء ، فضلاً عن تزوّدهم بثروة لغوية ووقوفهم على علوم الأمم الأخرى مباشرة أو بعد ترجمتها الى اللغة العربية .

لقد توسّعت الآفاق أمام الكتابة بعد أن احتضنت الدولة العباسية الأمة الاسلامية وتولّت رعايتهم وحمائتهم والنظر في شؤونهم السياسية والثقافية والعمرائية ، فنجد هناك كتابات في التفاوض والتقاليد والمبايعات والعهود والعقود والتهاني والتعازي ، الى جانب التوقيعات والخطب والرسائل والوصايا . وهناك أيضاً كتابات

اخوانية كالشفاعة والعتاب والشكوى والاعتذار واستتجاز الحاجات ، وكتابات في أغراض تأديبية بأسلوب القصص أو السير على أسنة الحيوانات.

وقد سلك الكتّاب آنذاك أسلوبين في كتاباتهم ، الأول : الأسلوب السهل المرسل العذب مع القصد في الألفاظ بقدر ما يتطلبه المعنى من الوضوح والجلال ، ورائد هذا الأسلوب ابن المقفع ، وسار على هذا الدرب الكثيرون ، ومنهم : عمرو بن مسعدة ، وسهل بن هرون ، واحمد بن يوسف .  
أمّا الأسلوب الثاني : فهو أسلوب التأنق واستقياء المعنى باستقصاء أجزائه ، وتقطيع الكلام الى فقر مرسله ومسجّعة ، والاستطراد الى الأخبار والنوادر والتراجم والاكتثار من الشواهد الشعرية ومأثور الكلام كما في كتابات الجاحظ .

وسنكتفي بالحديث عن بعض فنون النثر من مثل : الخطابة ، والقصص ، والرسائل ، والمقامات .

### الخطابة

من أقدم فنون النثر الشفوية التي تقال ارتجالاً في أمر عام ، وهي لمخاطبة القريب من الناس ، ووجدت منذ العصر الجاهلي ، إذ كانت تعترضهم أمور يقومون فيها خطباء ، ووصلت لنا خطب من العصر الجاهلي وخطباء ، ولو أنّ بعضها كان مشكوكاً فيها ، وهذا الفن الأدبي النثري الجميل أتيح له لعدة أسباب الازدهار الهائل والنشاط الكبير وبالذات في المدّة التي نسميها بـ ( العصر الذهبي للخطابة العربية ) وهي من ظهور الاسلام الى الثلث الأخير من عصر بني أمية ، وفي أواخر عصر بني أمية ضعفت وزادت ضعفاً في العصر العباسي الى أن ماتت في عصرنا الحاضر .

س/ ما أسباب ازدهار الخطابة في العصر الذهبي ؟

ج/ كان ظهور الاسلام ثورة في كلّ حياة العرب ومعتقداتهم ، فصاحب الدين المكلف بابلاغه للناس الرسول محمد ( عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام ) لايمكّن آية وسيلة لنشر هذا الدين وايصاله الى الناس إلا الخطابه ، فهو لايمكّن وسائل الاعلام كما في وقتنا الحاضر ، فيضطر الى أسلوب الخطابه هو ( عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام ) وأصحابه ( رض ) ، وكذلك العرب التي أرسلت وفودها الى المدينة كانت تستخدم فن الخطابه ، وأيضا ارسال بعض الصحابة الى قبائل بعيدة ، فكان من الطبيعي أن يجمع الناس ويخطب فيهم ، اذ حاجة الرسول ( صلّى الله عليه وعلى آله وسلم ) الى الناس ، وحاجة الناس لفهم الرسول ( صلّى الله عليه وعلى آله وسلم ) ورسالته أدت الى ازدهار الخطابة ، لذلك اهتمت الاسلام بالخطابة وجعلها أحد شعائره الدينية ، فأوجد ( خطبة الجمعة ) فهناك ركعتان لصلاة الجمعة وركعتان لسماع الخطبة ، وهكذا أصبحت خطبة الجمعة وسيلة الدعاية بين المسؤول والناس ، فالوالي أو الخليفة أو رئيس الدولة هو الذي يخطب فيها ويشرح كلّ شيء متعلّق بالناس . وكانت كثرة الفتوحات الاسلامية من عوامل ازدهار الخطابة أيضا فهي تعني كثرة الجيوش ، ففي أيّ وقت يهيب الجيش للقتال يخطب فيهم رئيس الدولة لتوديعهم أو لاعطائهم الحماس للقتال وهذه تسمى ( الخطابة العسكرية ) وهي كلّ خطبة لها علاقة بالجيوش والحروب والمعارك .

والعرب صارت لهم دولة وحكومة ومعارضة سياسية فبدأت المعارضة والاضطرابات وما يسمى بالفتنة في عهد عثمان بنشقيق الناس ثم مبايعة علي بن أبي طالب ( عليه السلام ) ، ثم الاضطرابات والحروب الى أن أسستشهد الامام علي ( عليه السلام ) فتكونت أحزاب سياسية فنضجت في عهد بني أمية ، فالحزب الأموي في السلطة وفي المعارضة الشيعة والزيبريون والخوارج ، وكلّ حزب من هذه الأحزاب له شعراء وخطباء يدعون

الناس الى أحزابهم ونبذ بقية الأحزاب ، وبذلك ظهر لدينا نوع ثالث يسمّى ( الخطبة السياسية) وقد ازدهر هذا النوع من الخطابة بفضل ديمقراطية الأمويين ، فكان الناس يعبرون عن آرائهم . وكانت القبائل العربية عندما تريد أن تهتأ الخليفة مثلاً على عهد كانت ترسل وفداً فيه الشاعر والخطيب ، وكذلك كانوا يفعلون في المناسبات ويسمّى هذا النوع بـ ( الخطبة الحفليّة ) ، والخطبة تلقى أمام حشد كبير من الناس من دون مقدمات ، وترتجل ارتجالاً ، ويلقيها الخطيب واقفاً وعلى مكان مرتفع لكي يراه الناس ، ويكون جهوري الصوت ، خالياً من عيوب النطق .

اذن عرفنا أن الخطابة أربعة أنواع هي : الدينية والحربية والسياسية والحفلية .

وضعت الخطابة لزوال أسباب الازدهار في الثلث الأخير من عصر بني أمية والعصر العباسي ، وذلك لانشار الاسلام ، فلم يعد هناك حاجة للخطابة الدينية على مداها الواسع وإنما حدّدت هذه الخطابة ، وتوقّفت الفتوحات فلا حاجة للخطابة الحربية ، وتمّ القضاء على الأحزاب السياسية ، والحزب الذي بقي كان يعمل في السرّ مثل العباسيين فانتهت الخطابة السياسية ، ثم اعتمد العباسيون الفرس الخراسانيين أي لم يعد العباسيون يحتفلون بالقبائل العربية والبدوية ولهذا أغلقوا أبوابهم بوجوه الوفود التي كانت تقد على الأمويين فانتهت بذلك الخطابة الحفلية .

وحدث ازدهار وقتي للخطابة في العصر العباسي ، فقادته الثورة العباسية لجؤوا لفن الخطابة فتحدّثوا من خلالها الى الناس ، وخطبواهم كانوا قادة الثورة العباسية أنفسهم في بادئ الأمر مثل ( السفاح ، والمنصور ، وعمّهما داود بن علي ) .

وكانت هناك بعض الخطب السياسية في ثورة ( النفس الزكية ) فلما انتهت واستقرت الدولة بدأت الخطابة السياسية تنتهي ، واقتصرت احتفالات العباسيين على طبقة خاصة ، أي لوجود للحفلات العامة فانتهت الخطابة الحفلية ، وكان بعضهم يلقي كلمة مكتوبة في ورقة في هذه الحفلات وهي ليست خطبة وإنما إلقاء كلمة مكتوبة في ورقة في هذه الحفلات وهي ليست خطبة وإنما إلقاء كلمة لأتباعها غير مرتجلة ، وفضلاً عن زوال أسباب ازدهار الخطابة فان الناس لم يعودوا قادرين عليها فقد أصبحوا أناساً متحضرين واختلطوا بالأعاجم ، وأصبحوا يتعلّمون العربية في المدارس أي لم يعودوا فصحاء مثل السابق ، وقد قيل إنّ ( الرشيد ) طلب من ( الأصمعي ) مؤدّب أولاده أن يعدّ لكل واحد منهما خطبة بالسرّ ، و هذا يعني أنّ أبناء الرشيد لا يعرفون الخطابة ، ويمكن أن نعم ذلك على أبناء الخلفاء العباسيين كلّهم .

ثمّ أستعيط عن الخطابة بوسائل أخرى بسبب توفّر الورق والأقلام والحبر وتعدّد الكُتاب فبدأوا بتصدير كتب رسمية تقرأ على الأمصار العربية .

وبالتأكيد ان الخطابة موهبة مثل الشعر ، وواضع أسس الخطابة هو الرسول محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلّم) ، وهي تختلف عن الخطابة في الجاهلية فتبدأ أولاً بالبسملة ، وإذا لم تبدأ بالبسملة تسمّى بـ ( البترء ) ، وتحتوي على آيات من القرآن الكريم ، وإذا خلت منها تسمّى بـ ( الشوهاة ) ، ولا يذكر فيها اسم الخطيب ، ثم يأتي التحميد الذي يطول أحياناً ، ثم تأتي الفاصلة بين المقدّمة والموضوع وهي قولهم ( أما بعد ) ، ثم تنتهي الخطابة بعبارة السلام كاملة أي قولهم ( السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ) ، وكلّما زاد الخطيب في خطبته وأطال زاد تألّفه ، وصارت هذه سنّة متّبعة .

وفيما يلي ( خطبة حفليّة ) ، وهي قول ( ابن عتبة ) للمهدي يهتئ بالخلافة ويعزّيه في أبيه المنصور :

( آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله ، وبارك لأمير المؤمنين فيما خلفه له أمير المؤمنين بعده ، فلا مصيبة أعظم من فقد أمير المؤمنين ، ولا عقبى أفضل من وراثته مقام أمير المؤمنين ، فاقبل يا أمير المؤمنين من الله أفضل العطيّة واحتسب عنده أعظم الرزية ) .

### القصص

راجت القصص في العصر العباسي وكثر الاقبال عليها ، وهي - وإن كانت في نظر بعض الباحثين لاتدخل في باب القصة ؛ لأن الخصائص المطلوبة غير متكاملة فيها - تروى للتسلية والسمر وقضاء أوقات الفراغ الى جانب ما فيها من عبر وعظات ودروس أخلاقية ، ولاسيما التي تناول البطولة والفروسية قبل الاسلام وبعده .

وكانت بعض القصص تدور على أسنة الطير والحيوان ، كما هو الحال في كتاب (كليلة ودمنة ) الذي نقله الى العربية ( ابن المقفع ) ، وهو كتاب يصور البهائم والطيور كائنات عاقلة مفكرة مدبرة تخضع لنوازع الغرائز وشهوات النفوس خضوعها الى الاعتبار بالأحداث والاحتكام الى الضمير والرغبة في التفلسف واستخلاص العظة أو المثل من المواقف والعلاقات ولـ ( سهل بن هرون ) كتابان على شاكلة كليلة ودمنة ، الاول : ( ثلثة وغراء ) ، والكتاب الثاني : ( النمر والثعلب ) وهو ممتع طريف الاسلوب ، يدور على شخصيات ثلاث الثعلب الحكيم ، والثذب الحجود ، والنمر الطاغي ، وقد وصل إلينا منه نصوص متكاملة .

وكانت مجالس الوعظ آنذاك تميل الى القصص الديني ، ولاسيما في تفسير بعض آيات القرآن الكريم ، وقد شاهد الجاحظ طرفا من هذه المجالس وذكر أسماء مجموعة من قصاص العصر العباسي الأول ، قال : (ومن القصاص موسى بن سيّار الأسواري ، وكان من أعاجيب الدنيا ، وعمرو بن فائد ، كان حافظا للسير ولوجوه التأويلات ، فكان ربّما فسّر آية في عدّة أسابيع ، وكان يقصّ في فنون من القصص ويجعل للقرآن نصيبا من ذلك ، ثمّ قصّ من بعده القاسم بن يحيى ، وهو أبو العباس الضرير ، لم يدرك في القصاص مثله) . وهؤلاء القصاص كانوا يعنون بالاسلوب وضبط الكلام وطريقة الالقاء كي يقبل عليهم الناس ويلتقوا حولهم وينصتوا إليهم .

ويمكن أن نضيف الى ما سبق الحكايات التاريخية التي يندر فيها الحوار وتأخذ طابع السرد المباشر ، مثل قصة انتقام قصير بن سعد اللخمي لجذيمة الأبرش الذي صرعه الزبّاء ملكة تدمر ، وقصة معركة القادسية التي صور فيها أبو حنيفة الدينوري أحداثها تصويرا دقيقا كما وقعت بين المسلمين والفرس من غير تعمل أو افتعال ، وقد تماسكت فيها الأحداث .

وتجدر الإشارة هنا الى أنّ هناك حكايات لبعض الأطباء مع مرضاهم فيها نواذر ظريفة وحيل ظريفة ، وقد نقل لنا ( علي بن سهل الطبري ) طائفة منها في كتابه ( فردوس الحكمة ) .

وستتناول فيما يأتي انموذجين من القصص ، أحدهما لابن المقفع ، والآخر للجاحظ بعد ترجمة موجزة لحياتهما .

### ابن المقفع

فارس الأصل ، اسمه روزبه بن داؤبه ، كان أبوه من قرية ايرانية تسمى ( جور ) ، ترك البصرة ، وظلّ على دينه مجوسيا مانويا ، غير أنه استعرب سريعا ، لاخلائه بمواليه آل الأهم التميميين ، ولم يلبث أن عمل

في دواوين الخراج للحجاج، وظهرت عليه خيانة في أموال الدولة ، فضربه الحجاج حتى تفقعت يده ( أي يبست ) فسَمِّي ( المقفَع ) ، ولم يسلم ، بل مات على دينه ، وعليه نشأ ابنه الذي ولد سنة ( ١٠٦ هـ ) ، ويظهر أنه عني عناية شديدة بتأديبه ، حتَّى اتقن اللغتين الفارسية والعربية ، ومضى يتكسَّب بصناعة أبيه، فعمل في دواوين العراق آخر زمن بني أمية ، إذ كتب لعمر بن هبيرة والي العراق لهشام بن عبد الملك ، وكتب لابنه يزيد في ولايته العراق لمروان بن محمد ، ولابنه الثاني داود في ولايته على كرمان بايران ، وأفاد منهما أموالاً كثيرة . ولما قامت الدولة العباسية كتب لسليمان بن علي عم المنصور وواليه على البصرة، ولأخيه عيسى بن علي والي الأهواز ، وعلى يديه أعلن اسلامه وتكئى بأبي محمد ، وقتله المنصور سنة ( ١٤٥ هـ ) على الزندقة ، ويقال بل قتله لأنه أسرف وبالغ في كتابة الأمان لعَم المنصور عبد الله بن علي حينما ثار عليه .

ولابن المقفَع مجموعة آثار منها كتاب كليلة ودمة ، والأدب الكبير والأدب الصغير ، ورسالة الصحابة . وكتاب كليلة ودمنة كتاب يحتوي على مجموعة من القصص الأخلاقية وضعت على أسنة البهائم والطيور ، وحوث من مكارم الأخلاق والحكم خيراً كثيراً ، وقد سَمِّي الكتاب باسم أخوين من بنات آوى ، هما كليلة ودمنة ، وسنكتفي بهذه القصة من هذا الكتاب :

(( زعموا أنّ حمامتين ذكرا وأنثى ملأ عَشْمَا من الحنطة والشعير . فقال الذكر للأنثى : إنّنا إذا وجدنا في الصحاري ما نعيش به فلسنا نأكل ممّاما هاهنا شيئاً . فإذا جاء الشتاء ولم يكن في الصحاري شيء رجعنا الى ما في عَشْمَا فأكلناه . فرضيت الأنثى بذلك وقالت له : نعمارأيت . وكان ذلك الحبّ ندياً حين وضعتاه في عَشْمَا . فانطلق الذكر فغاب ، فلما جاء الصّيف يبس الحبّ وتضمّر ، فلما رجع الذكر رأى الحبّ ناقصا فقال لها : أليس كنّا جمعنا رأينا على ألا نأكل منه شيئاً فلمْ أكلته ؟ الخ ... )) .

### الجاحظ

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي ، لقب بالجاحظ لبحوظ عينيه ، ولد في البصرة حوالي سنة ( ١٦٠ هـ ) ، وتوفّي أبوه وهو صغير ، وفي مدينته تعلّم مبادئ القراءة والكتابة ، ثمّ أخذ يتردّد على حلقات العلم التي تعقد في المساجد ، ويختلف الى سوق المرید ، يتلقى الفصاحة من شفاه العرب ، وكان مفرطاً في القراءة ، يكتزي دكاكين الوراقين ، ويعتكف فيها ، ليسقف على ما يأتي إليها من كتب ، ويستوعب معارفها . والى جانب طلب العلم والمعرفة كان يلتمس اسباب العيش عن طريق العمل . وحينما زار بغداد أعجب به المأمون ، وولاه رئاسة ديوان الرسائل ، ولكن الجاحظ لم يبق فيها أكثر من ثلاثة أيّام ، وانصرف الى التأليف ، وتبلغ مؤلفاته مئات الكتب والرسائل ، واعتنق مذهب الاعتزال ، وكان صديقاً مخلصاً للوزير محمد بن عبد الملك الزيات الذي قتل على الزندقة في زمن المتوكل ، وأدركه الموت سنة ( ٢٥٥ هـ ) ، وقيل وقعت عليه كتبه وهو شيخ ضعيف قد جاوز التسعين فقضت عليه .

وكان الجاحظ يمتلك شخصية قويّة واردة فذة ، وكان متفانلاً يبدو عليه السرور ، بسيطاً ، متواضعاً ، حريصاً على مواعيده وأوقاته ، وفيّاً لأصدقائه ، صادقاً في أقواله ، محبّاً للنظام ، وغير ذلك من الصفات الحسنة .

من خصائص اسلوبه في الكتابة الموسوعيّة ، والواقعيّة ، واكتثاره من النوادر والفكاهات ، والاستطراد ، وكان يعتني بالصياغة والألفاظ ، وكذلك بروز صفة التلوين الصوتي أو الموسيقي في اسلوبه . وفيما يلي قصة من قصصه في كتاب ( الحيوان ) بعنوان ( القاضي والذباب ) يقول :

(( ..... ، فلم يجد بدأً من أن يذبَّ عن عينيه بيده ، ففعل ، وعيون القوم إليه ترمقه . ففتَحَى عنه بقدر ما ردَّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد الى موضعه ، ثم الجأه الى أن ذبَّ عن وجهه بطرف كَمَّه ، ثم أَلجأه الى أن تابع بين ذلك . وعلم أنّ فعله كلّه بعين من حضره من أمنائه وجلسائه . فلَمَّا نظروا إليه قال : أشهد أنّ الذباب أَلجَّ من الخنفساء وأزهى من الغراب ، وأستغفر الله ، فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد الله عزَّ وجلَّ أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستورا . وقد علمت أنّي عند الناس من أزمّت الناس ، فقد غلبنى وفضحني أضعف خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : (( وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ))).

## الرسائل

هي اسلوب من أساليب النثر لمخاطبة البعيد ، وقد تطوّر هذا الفن في العصر العباسي تطورا ملحوظا بسبب تعقّد أمور الدولة وتشابكها ، فحاجة الدولة الى موظفين يتقنون هذا الفن لتعيينهم في الدواوين بأنواعها المختلفة دفع الكتاب الى التنافس فيما بينهم ، وهذه المنافسة دفعت هؤلاء الى محاولة التفوق في الكتابة والبراعة فيها ، وأدّت الى ازدهار الرسائل الديوانية في هذا العصر كما ونوعا .

وهناك ثلاثة أنواع من الرسائل وهي : الديوانية والاخوانية والأدبية ، أما الديوانية فهي الكتب الرسمية التي تتعلق بمختلف شؤون الدولة ، والاخوانية هي التي يتبادلها الناس والأصدقاء فيما بينهم في مناسبات شتى ولا علاقة للدولة بها ، وكان كتابها يعنون بديباجتها ، ويسندونها بأيات قرآنية وأحاديث نبوية وأقوال الصحابة والتابعين والأشعار والأمثال والحكم ، واشتهر الكثيرون بها أمثال ابن المقفّع ، ومحمد بن زياد الحارثي ، وكنثوم بن عمرو العتابي ، أما الرسائل الأدبية فهي بحوث صغيرة أقل من الكتاب مثل رسالة الجاحظ في القيان . وكان هؤلاء الكتاب مثقفين بثقافة عصرهم من معرفة بعلوم العربية والعلوم الاسلامية والعلوم المترجمة ، وقد تكون لهم ثقافة خاصة تفرضها الوظيفة مثل المعرفة بعلم الحساب اذا كان موظفا في ديوان الخراج ، أو المعرفة بالجانب الفقهي اذا كان موظفا في ديوان الزكاة .

وفيما يلي ترتيب أسماء كتاب الرسائل في العصر العباسي بحسب ترتيب بعض الخلفاء العباسيين :

- ١- في عهد السفّاح : عمارة بن حمزة .
  - ٢- في عهد المنصور : عمارة بن حمزة ، ومسعدة بن سعد ، ويوسف بن صبيح ، وجبل بن يزيد ، وغسان بن عبد الحميد .
  - ٣- في عهد المهدي : أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار ، واسماعيل بن صبيح ، ومطرّف بن أبي مطرّف العبدوي ، ومحمد بن حجر .
- وكانت هناك رسائل تعرف باسم ( رسائل الخميس ) إلا أنّها غير معروفة كثيرا ، وهي خاصة الى خراسان فقط وليس للناس كلهم ، وهذه الرسائل هي امتداد للمنشورات السرية في زمن الدعوة العباسية ، ويتحدّث بها الكاتب عن مناقب الخليفة العباسي وأحقّيته بالخلافة مثلما كانوا قبل قيام الدولة العباسية .
- لذا أراد الخلفاء العباسيون الحفاظ على العلاقات القائمة بينهم وبين خراسان وليؤكّدوا أنّهم لم ينسوهم ، وبقيت هذه الرسائل الى عهد المعتصم الذي استعان بالأتراك .
- فهل كانت هذه الرسائل تكتب كل يوم خميس ؟ ولماذا يوم الخميس بالذات؟ وهل كانت تكتب أول ما يتولّى الخليفة ؟ أسئلة لانعلم الجواب عنها .

وأول رسالة ديوانية كتبت في تاريخ العربية هي في الاسلام عندما أصبح للعرب دولة لأول مرة ، والرسائل الديوانية أسبق من الرسائل الأخرى ، وهي رسائل الرسول محمد ( صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم ) الى

ملوك الدول المجاورة له يدعوهم فيها الى الاسلام ، وكذلك رسائله الى بعض قواده وولاته البعيدين عنه ، ولم يكن الرسول ( عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام ) يكتب بيده وإنما يُملي للكاتب ، ولكن الاسلوب للرسول ( صلى الله عليه وعلى آله وسلم ) ، فهو اذن واضح الرسائل الديوانية وأسسها .

وتبدأ الرسالة بالبسملة أولاً ثم يقول الرسول ( صلى الله عليه وعلى آله وسلم ) مثلاً : من محمد رسول الله الى خالد بن الوليد . أي يقدّم فيها اسم المرسل ، ثم يأتي اسم المرسل اليه ، حتى لو كان أقلّ رتبة منه ، فعندما يجيبه خالد يقول : من خالد الى الرسول . ثم يأتي التحميد وهو قصير ( أحمد اليك الله ) ، ثم تأتي عبارة ( أما بعد ) وهي الفاصلة بين المقدمة والموضوع الأساس . فيقول : ( أما بعد وصلني كتابك وفهمت ما فيه اقبل وليقبل معك وفدك ) ، وتنتهي الرسالة بعبارة ( السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ) .

وكل ما يصدر عن الرسول ( عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام ) سنة متبعة ، لذلك أصبحت الرسائل جميعاً تمرّ بهذه الخطوات ، فهي موجزة جداً وجافة وخالية من العواطف الشخصية وخالية من الألقاب ، وذلك لأنها ليست رسالة اخوانية ، وإنما ديوانية مختصة بالدولة .

أما الأسباب لبساطة هذه الرسائل في العصر الاسلامي فهي :

- ١- كانت أمور الدولة بسيطة وناشئة فلا تحتاج الى التفصيل .
- ٢- كان الكلام بين العرب الفصحاء أنفسهم ، فكلمهم من قريش ويفهمون بعبارات موجزة .
- ٣- كان الایجاز عند العرب أعلى مراتب البلاغة .
- ٤- كان الكتاب يكتبون نخوة من دون أجرة ، فالرسالة الطويلة تكون شاقّة عليهم .
- ٥- كانوا يتعلمون مبادئ القراءة والكتابة .
- ٦- كانت الكتابة بالرقاع لعدم توفر الورق .

ثم تطوّرت الرسائل في العصر العباسي لعكس الأسباب السابقة ، فأمور الدولة تطوّرت وتعقدت ، فأصبحت الرسائل تحتاج الى الشرح الطويل ، ولم تعد الكتابة بين العرب الفصحاء . فأكثرهم كانوا عجماء يحتاج لهم الشرح الطويل ، وأصبحت الأمة تجيد القراءة والكتابة ، فلا يجد الكاتب صعوبة في الكتابة ، وتوفر الحبر والورق ، وأصبح الخلفية لا يكتب ولا يملي لأن له كتاباً لهذه المهمة ، ويحدد للكاتب الموضوع وتترك له الحرية في المقدمة ، ولا يوجد تحديد في التحميدات ، وهنا يتضح اسلوب الكاتب ، فأصبح هناك منافسة بين الكتاب وتميز فأصبح بعض الكتاب من كبار الأدباء مثل ابن المقفع ، وعلى قدر براعة الكاتب تأتي الشهرة والترقي ورضا الرؤساء عنه .

وفيما يأتي نصّ لرسالة ديوانية أرسلها يحيى البرمكي الى هارون الرشيد عندما سجنه ، يقول فيها :

(( من شخص أسلمته ذنوبه وأوثقته عيوبه ، وخذله شقيقه ، ورفضه صديقه ، ومال به الزمان ، ونزل به الحدّان ، فحلّ في الضيق بعد السعة ، وعالج البؤس بعد الدعة ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهاد بعد الهجود ، ساعته شهر ، وليلته دهر ، قدعابين الموت ، وشارف الفوت ، جزعا لموجدتك ياأمير المؤمنين وأسفا على ما فات من قريك )) .

### ابن العميد

هو أبو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد ، فارسي الأصل من مدينة قم ، نشأ في بيت أدب وكتابة ، ووزر لآل بويه ، وكان تقلّده للوزارة سنة ( ٣٢٨ هـ ) ، ووزر أولاً لركن الدولة ثم لابنه عضد الدولة ، وأقام في وزارته الى وفاته سنة ( ٣٦٠ هـ ) .

كان ابن العميد واسع الحفظ يلمّ بضروب الثقافة لعصره جميعها من فلسفة وعلوم طبيعية وهندسة وما الى ذلك حتّى سمّي بالجاحظ الثاني ، وقد مدحه المتنبّي .

له مجموعة رسائل في النصح والعتاب وما اليهما ، كما له بعض الشعر الرقيق .

### طريقته في الكتابة

هي طريقة الوشي والزخرف التي كانت شائعة في اقليمه ، وكانت عناصر فنّه الكتابي ترجع الى ما يأتي:

١- التزام السجع الكثير الفقرات : كان ابن العميد يحصل على الموسيقى بوساطة السجع والتقصير ، فيوازن بين العبارتين ، وإن طال زمن العبارتين المسجوعتين قصّره بإحداث المعادلات والموازنات بين ألفاظ العبارتين حتّى لا تخرج الأذن من ألفاظ العبارة الأولى إلاّ وتحسّ براحة صوتيّة إزاء كلّ كلمة من كلمات العبارة الثانية لأنّها تماثل قرينة لها في العبارة السابقة من الوجهة الصوتية تمام التماثل .

٢- التصوير والتلوين والتمتيق : وكان ابن العميد يحصل على التصوير والتلوين والتطريز بدمج وشي السجع في وشي البديع وضروب أساليب البيان ، فيحلي عباراته بألوان البديع من طباق وجناس وغيرهما ، ويصوّر بأساليب البيان من استعارة وكناية وغيرهما ، ومن قوله في ذلك : (( لاجرم آئي وقفتم بين ميل اليك وميل عليك ، أقدم رجلا لصدك ، وأؤخر أخرى عن قصدك )) .

٣- عدم التقيد بالسجع والتمتيق تقيداً مطلقاً : يتعمّد ابن العميد السجع والزخرفة ، ولكنّه لا يتقيد بهما تقيداً دائماً ، وإن كانا شائعين في كتابته شيوعا عظيما ، وهو بذلك لا يشبه سواد المتأقنين الذين عاصروه أو أتوا بعده ، بل قد ترى في رسائله أحيانا ما يذكرك بأسلوب العهد السابق .

٤- الميل الى الترادف والإطناب : إنّ الاسلوب المنمّق المسجّع الذي يعمد اليه ابن العميد في كثير من الأحيان يتطلّب من طبيعته الإطناب والترادف . وهذا مانجده في رسائل الكاتب ، فيقول مثلاً : (( قد يغرب العقل ثمّ يؤوب ، ويغرب اللبّ ثمّ يثوب ، ويذهب الحزم ثمّ يعود ، ويفسد العزم ثمّ يصلح )) .

٥- البراعة في استعمال حروف الجرّ وسائر الروابط الكلاميّة .

٦- الاغراب في الاشارات التاريخية واللغوية والعقلية ، إلاّ ان إغرابه قليل بالنسبة الى ما نجده عند سواه من المترسّلين .

وهكذا كان نثر ابن العميد صلة وصل بين عهد السجع المتأقن والعهد الذي سبقه .

### تلاميذ ابن العميد

جرى على طريقة ابن العميد مع زيادة في السجع والتمتيق طائفة من المترسّلين أشهرهم:

١- أبو بكر الخوارزمي ( ت ٣٨٣ هـ ) .

٢- أبو اسحاق الصابي ( ت ٣٨٤ هـ ) .

٣- صاحب بن عبّاد ( ت ٣٨٥ هـ ) .

٤- بديع الزمان الهمداني ( ت ٣٩٨ هـ ) .

### المقامات

المقامة بالفتح : المجلس ، والجماعة من الناس ، والمجلس في الأكثر تدور فيه أحاديث للمسامرة ، وقد

كانت للعرب قبل الاسلام مجالس سمر يتحدّثون فيها بقصص الجن والحيوان ويتحدّثون بالمواعظ والأمثال .

وفي العصر الإسلامي نجد شخصا يقوم في هذا المجلس بين يدي خليفة أو غيره ويتحدث واعظاً .  
وتستخدم المقامة بمعنى المحاضرة ، وقد عقد ابن قتيبة ( ت ٢٧٦ هـ ) فصلافي كتابه ( عيون الأخبار )  
بعنوان ( مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك ) أورد فيها عشر مقامات ، وهي مواظ يقف فيها الراوي أمام  
الخليفة لنصحه وارشاده .

نخلص ممّا تقدّم أن المقامات كانت تعنى - قبل أن تتخذ مدلولها الاصطلاحي - بأحاديث النصح  
والارشاد والوعظ والتقويم الخلفي .

وأصبحت المقامة فيما بعد مصطلحا أدبيا تطلق على نوع من الكتابة الفنية على شكل أقصوصة منمّقة  
في ألفاظها وأسلوبها ، فيها شيء من الحوار ، وتعتمد في الأكثر على راو واحد وبطل أديب متحايل ، يراد بها  
وصف حالة نفسية ، أو مفارقة أدبية ، أو مسألة دينية ، أو قضية علمية ، وتتطوي على لون من ألوان النقد ،  
أو التهكم والسخرية ، أو التصحيح والتقويم ، أو الثورة ، وبعدّ بديع الزمان الهمداني أول من أعطى كلمة مقامة  
معناها الاصطلاحي بين الأدباء .

إلا أنّ الذين أرخوا للأدب من المحدثين قد تضاربت أراؤهم في تعيين مبتدع المقامات فالرأي الأول يقول  
: إنّ الجاحظ ( ت ٢٥٥ هـ ) هو المنشئ الأول لها في رسالته ( التربيع والتدوير ) أو في رسالته ( صناعات  
القيود ) ، ورأي ثان يقول : إنّ أبا بكر محمد بن الحسن الأزدي ( ت ٣٢١ هـ ) هو مبتكرها والسابق لها ، ورأي  
ثالث يقول : أنّ المبتكر الأول لها هو أحمد بن فارس اللغوي ( ت ٣٩٠ هـ ) أستاذ بديع الزمان ، ورأي آخر يرى  
أنّ أبا حيان التوحيدي ( ت ٤١٤ هـ ) ابتدعها وأنشأها .

إلا أنّ بديع الزمان كان أديبا عالما ، متقفا بثقافة كبيرة مستوعبا أكثر الكتابات التي أنشأها السابقون ،  
وفكرة المقامات بصيغتها وشكلها المعروف هو صاحبها ، ويعود له الفضل في إعطائها المعنى الاصطلاحي بين  
الفنون النثرية في الأدب العربي .

### موضوع المقامات

ساعت الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعد القرن الثالث للهجرة ، ولا سيما بعد ضعف مركز  
الخليفة ، وسيطرة الأعاجم على شؤون الدولة ومرافقتها العامة ، وتفشّي الظلم الى جانب الفقر والعوز ، وأصبح  
الكثيرون في المجتمع آنذاك منهم علماء وأدباء في ضيق وحرَج حتّى اضطرّ بعضهم الى الاحتيال والتحامق  
والاستجداء . وقد صور بديع الزمان هذا الواقع المرير والوضع المزري خير تصوير بأسلوب تطغى عليه روح  
الدعابة والمرح والفكاهة والإضحاك على لسان راو اسمه ( عيسى بن هشام ) ومحتال ذكي في صورة شحاذ  
يدعى ( أبا الفتح الاسكندري ) .

والى جانب الموضوع الذي يصور المجتمع في فقره وبؤسه وحرمانه من الحرية والعيش العزيز ، نجد  
موضوعات تأخذ طابعا ثقافيا من ذلك مقامات في النقد الأدبي ، مثل : العراقية ، والشعرية ، والقريضية ، ومنها  
دينية وعظمية في النصح والإرشاد واتباع الخلق القويم والطريق المستقيم ، مثل : الاهوازية ، والوعظية ، ومنها  
وصفية تتناول العادات والطبائع والمآكل والمشارب والحيوانات والمدن .

وإذا أنعمنا النظر في مقامات الحريري نجد أيضا الكدية تلازم بطلها أبا زيد السروجي الذي يروي أخباره الحارث بن همام ، وإذا كنا قد لاحظنا أن بديع الزمان عرض أبا الفتح الاسكندري واعظا وناصحا العباد الى ما فيه صلاحهم في مقامتين ، فإن الحريري ( ت ٥١٦ هـ ) عرض أبا زيد السروجي واعظا في عشر مقامات ، ولعلّ أطرف ما نراه في المقامة الثانية عشرة ، الأدعية التي يرجو فيها من الله أن يرحمه وينقذه من الباغين والطاغين والجانين ، يقول فيها :

(( ..... ، وكفّ عني أكفّ الظالمين ، وأخرجني من ظلمات الظالمين ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ، اللهم أحرصني بعينك ، ودعوتك ، وأخصني بأمنك ، ومثلك ، وتولني باختيارك وخيرك ، ولا تكن لي كلاءة غيرك ، وهب لي عافية غير عافية ، وارزقني رفاهية غير واهية واكفني مخاشي اللأواء ، واكفني بغواشي اللأواء ، ولا تظفر بي أظفار الأعداء ، إنك سميع الدعاء)).

لا تكن لي كلاءة غيرك : لاتدعني الى حفظ غيرك ، غير عافية : غير دراسة ، اللأواء : الشدة والضيق ، اكفني : احفظني في كفك ، الغواشي : ما يغطي به الشيء مثل غاشية السرج ، الألاء : النعم . إن الطابع الديني القائم على التوجيه والإرشاد وإصلاح النفوس من الشرور والآثام قد أصبح سمة بارزة عند الكثيرين الذين جاؤوا بعد الحريري ، مثل الإمام ( محمد بن عمر الزمخشري ) ( ت ٥٣٨ هـ ) ، و ( أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ) ( ت ٥٩٧ هـ ) ، وتجدر الإشارة الى أنّ المقامات عند بعض الكتاب تغيرت طريقة التناول والعرض فيها عمّا وضعه السابقون ، ولاسيما بديع الزمان الهمذاني والحريري ، إذ تخلّصت من الرواية واكتفت بالحكاية ، وقد عبّر بعض من هذه المقامات عن الأحداث الكبيرة والولايات والمصائب التي أبتليت بها الأمة العربية .

### أسلوب المقامات

شاعت الصنعة في الكتابة العربية في القرن الرابع للهجرة شيوعاً كبيراً ، وتسرب أثرها الى المقامات ، حيث نجد بديع الزمان ، الذي يعدّ الرائد في انشائها ، يأخذ نصيباً كبيراً من الأساليب البلاغية المصنعة ، ويدخلها بذكاء وقدرة في مقاماته ، ولاسيما السجع والجناس والتصوير ، ونراه أحيانا يكثر من الألفاظ الغريبة على نحو ما جاء في المقامة النهيدية ، ويحشد فيها الشعر الذي يطول أحيانا كما في المقامة البشرية ، ويقتبس من القرآن الكريم ، والأمثال العربية المشهورة ، ويورد أطرافا من معارف كثيرة في اللغة العربية وآدابها ، إته يأتي بذلك كلّ بإحكام وتناسق وانسجام وعرض مشرق لطيف يروق السامع ويستهويه .

وإذا انتقلنا الى الحريري نجده أكثر ايعالا في استخدام فنون البديع وامعانا في تناول غريب اللغة ، ولاعجب حين قال عنه ( العماد الأصبهاني ) في كتابه ( خريدة القصر وجريدة العصر ) : (( قد أعجز الفصحاء بصناعته ، وأبّر على البلغاء ببراعته ، وبلغ السماء ببلاغته ، وأوجد حظي الزمان العاطل بجودة صياغته وقد اشتهرت له المقامات شرقا وغربا ، وبعداً وقرباً )) .

لقد أقرّ الحريري في مقدّمة مقاماته اسلوبه في كتابتها بقوله : (( تحتوي على جدّ القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره الى ما وشحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجي النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبّرة ، والمواعظ المبكية ، والأضاحيك الملهية )) .

إنّ هذه الأمور ساقها الحريري في مقاماته بتمكّن واقتدار وبأسلوب محكم رصين ، فيه حيويّة نافذة ، ومرّد هذه الحيويّة كما يرى الدكتور شوقي ضيف : (( الى هذا الثوب المتوهّج من السجع ، الذي لا نجد فيه

نقصا ، فقد فصله وقطعه ووشّاه ذوق رفيع ، كان يعرف كيف يضع الكلمة بجوار الكلمة ، وكيف يشدّ اللفظة الى أختها وكأنه عازف قيثارة .))

وجاء بعد الحريري كتاب كثيرون ، دبّجوا مقامات في موضوعات متنوعة دينية واجتماعية وأدبية ، وحالوا أن يظهروا فيها براعتهم الاسلوبية والبلاغية ، ولكنهم لم يلحقوا به ولا برائده بديع الزمان الهمداني ، ويقوا في دائرة التقليد إلا ما ندر منهم ، ولذلك لم تأخذ مقاماتهم الشهرة والانتشار في الأوساط الأدبية وبقيت مخطوطة ومطبوعة بعيدة عن أيدي الدارسين .

### بديع الزمان الهمداني

هو أحمد بن الحسين ولد سنة ٣٥٨ هـ بهمدان ، ولذلك يقال له الهمداني ، ولقبه معاصروه باسم بديع الزمان إعجابا بأدبه ، وهو من أسرة عربية ، نزلت بهمدان ، وهي أسرة تغلبية مضرية ، فهو ليس فارسي الأصل ، بل هو عربي ، وعني به أبوه ، فأخذه بالعلم والتعلم منذ صغره ، وألحقه بحلقات العلماء ، ولا سيما حلقة أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي المشهور صاحب كتاب ( الجمل ) .

وكان محباً للرحلة ، فلم يكد يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، حتى فارق موطنه الى الصاحب بن عباد سنة ( ٣٨٠ هـ ) ، ومدحه ببعض أشعاره ، وأعجب به الصاحب لبراعته الأدبية ، وأحضره مجالسه .

ويرحل عن الصاحب الى جرجان ، وينزل بأسرة معروفة بالثراء ، وتشجيع العلماء والأدباء ، ولايمكث في جرجان طويلا ، بل يتركها الى نيسابور عام ( ٣٨٢ هـ ) ، وهناك يصطدم بأبي بكر الخوارزمي ، فانهز الأدباء فيها فرصة نزول بديع الزمان ببلدتهم ، وعقدوا مناظرة بينه وبين الخوارزمي انتصروا فيها للبديع ، فعلا صيته ، وتألّق نجمه ، إذ كان الخوارزمي يعدّ في الذروة من الكتاب والشعراء لعصره ، وتصادف أن توقّي سريعا ، فخلا الجوّ للبديع ، وطارت شهرته ، وسرعان ما فارق نيسابور سنة ( ٣٨٣ هـ ) ، راحلا من بلد الى بلد في خراسان بينما الجوائز تغدق عليه ، فينزل سجستان ومنها الى ( هراة ) بأفغانستان ، ويتزوج ابنة ثري من سراة ( هراة ) يسمّى ( الخشنامي ) ، ويرزق بأولاد ، ويقنتي داراً وضياعاً ، ويكتب الى أبيه رسالة يستدعيه فيها هو وأخوته وعمّه ممّا يدلّ على ما صار اليه من ثراء ، وأصبحت له مكانة كبيرة ، فكان الكبراء يقصدونه لطلب شفاعته عند أولي الأمر .

وللبديع رسائل كثيرة . وهي رسائل اخوانية تتناول المديح والاستعطاف والشكر والاعتذار والعزاء والاستمناح وطلب الشراب والهزاء ، ومنها ما هو موجّه الى الأمراء أو الوزراء أو كبار الموظفين .

وأهمّ ميزة في رسائله هي السجع ، وهو يعنى فيه بتقصير العبارات ، وله في ذلك قدرة عالية ، فلا يكاد يمسك بالقلم ويكتب ، حتّى تتثال عليه العبارات ، وهذا السجع أيضا موشى بالجناس ، وبالذات الجناس الناقص ، وهو يشفعه بكثير من التشبيهات والاستعارات ، ومن خصائص رسائله أيضا أنّه يجنح كثيرا الى سرد بعض القصص والحكايات القصيرة ضربا للأمثال .

ورسائل البديع خفيفة ورشيقة ، وجعلته موهبته القصصية في رسائله بيتدع فناً جديداً ، هو فن ( المقامة ) ، وهي حكاية قصيرة تقوم على الحوار بين بطل مقاماته : أبي الفتح الاسكندري ، ورواية حكاياته وأقاصيصه : عيسى بن هشام ، والمعروف أنه أملى أربعين مقامة في أثناء مقامه بنيسابور ، وأضاف إليها خمسا عند نزوله بسجستان ، ثمّ أضاف إليها ستاً أخرى .

ولم يجعل الهمداني مقاماته حكايات متنوعة الموضوعات ، بل جعلها تدور على موضوع واحد ، هو الكدية أو الشحاذة الأدبية ، وكأنّه استلهم فيها حديث الجاحظ عن المكدين في أوائل كتابه ( البخلاء ) وكذلك

حديث البيهقي عنهم في كتابه ( المحاسن والمساوي ) ، ويعرض الجاحظ والبيهقي لأساليبهم وحيلهم في استخلاص الطعام والأموال من الناس .

ويسمى الهمذاني احد مقاماته ( المقامة الساسانية) نسبة الى هذه الطائفة من المكدين أو الأدياء الشحاذين ، إذ كانوا يسمون بالساسانيين نسبة الى ساسان، وهو أمير فارسي هجر إمارته وهام على وجهه محترفا للكدية .

وتنقل بديع الزمان بأبي الفتح الاسكندري بطل مقاماته في بلدان مختلفة مما دفعه الى أن يسمي أكثر المقامات بأسماء البلدان التي ألم بها وأكثرها بلدان فارسية ، وفي أحيان قليلة تسمى بأسماء الحيوان مثل المقامة الأسدية نسبة الى الأسد، أو باسم الأكلة مثل المقامة المضيرية نسبة الى طعام المضيرة ، وهي لحم يطبخ باللبن المضير أي الحامض ، وهناك خمس مقامات خاصة بـ ( خلف بن أحمد) تخلو من الكدية ، فهي مديح خالص له ، أما بقية المقامات فهي تدور على الكدية أو الشحاذة الأدبية عن طريق ما ينصبه أبو الفتح من حيل وشباك لسلب أموال الناس ، وفي تضاعيف ذلك يعرض الهمذاني مجتمعه بكل ما فيه من مساجد وحمّامات ومطاعم وموائد وما يتصل بها من الأواني في بيوت الأغنياء والفقراء .

وكانت للبديع موهبة قصصية رائعة ، غير أنه لم يستغلها في مقاماته بالمقدار الذي كان يظنّ ، إذ لم يضع في ذهنه صنع قصص وحكايات ، إنما الذي وضعه وجعله نصب عينيه أن يتخذ من حوار المقامة القصير بين عيسى بن هشام وأبي الفتح وسيلة لحشد عبارات مسجوعة طريفة تتحفظها الناشئة ، وجاراه الحريري وغيره في صنع هذه الأفاصيص القصيرة البلاغية ، وعدوها أروع صور النثر وأبلغه .

وتتميز المقامات للهمذاني بالسجع مثل الرسائل ، فضلاً عن ألوان البديع كالأخيلة والتساوير والجناس، وكان سجعه رشيقاً، لما يمتاز به من قصر ومن حسن انتخاب لألفاظه ، وقد يتخلل بعض مقاماته الشعر ، كما قد يحشد فيها بعض الألفاظ الغريبة ، وهناك أيضاً ميزات أخرى مثل الخفة والعدوية وروح الفكاهة المرحة المحببة لكل انسان .

وتوفي الهمذاني عام ( ٣٩٨ هـ) .

### أبو حيّان التوحيدي

هو أبو حيّان علي بن محمد بن العباس التوحيدي ، وقد اختلف في مسقط رأسه وتاريخ مولده ووفاته، فقيل مسقط رأسه شيراز بفارس ، وقيل نيسابور بخراسان، وقيل واسط بجنوبي العراق ، وقيل بغداد ، وربما الرأي الأخير هو الأرجح ، فقد ذكر كثير من مترجميه أنّ أباه كان يبيع نوعاً من التمر ببغداد يعرف باسم التوحيد ، وكانّه هو وأباه نسبا الى هذا التمر .

ويغلب أن يكون مولده في العقد الثاني من القرن الرابع بين سنتي ٣١٠ و ٣٢٠ ، ويقال إنّ في هذا التاريخ رحل الى شيراز وظلّ بها حتى توفي ، ويتأخّر بعض مترجميه بوفاته الى سنة ( ٤١٤ هـ) ، وليس في المصادر القديمة نصّ على جنسيته أو على أصله ، واختلف المعاصرون من قائل إنّه فارسي ، ومن قائل إنّه عربي ، ويرجح عربيته اعترافه بأنه لم يكن يعرف الفارسية ، وهو يدافع عن العرب بقوة دفاع العربي الأصل ضدّ الشعوبيين من معاصريه .

وكذلك نحن نجهل طفولة أبي حيّان ومرباه ، وطبيعي أن تكون طفولته اعتيادية وأن يختلف الى الكتاب مثل أقرانه يحفظ القرآن الكريم والشعر ويتعلّم الخطّ والحساب ، وكان من أكبر الأسباب في اتّساع ثقافته وأنها

شملت كل علم وفن احترافه الوراقة او نسخ الكتب بالأجرة للناس ، فقد قرأ وكتب بيده كثيرا من الكتب في كل فن وعلم .

وتظل حياة أبي حيان مجهولة لنا حتى أوائل العقد السادس من القرن ، إلا ما نعرفه عنه من أنه كان ورّاقا ، يعيش من نسخ الكتب ، ونراه يذهب الى الحج سنة ( ٣٥٣هـ ) ، ويتعرّف في مكة جماعة من الصوفيّة، وعاد الى بغداد في سنة ( ٣٥٤هـ ) .

ويبدو أنه وجد في نفسه شيئا من القدرة الأدبية ، فقصد ( ابن العميد ) علّه يجد عملا عنده، وظلّ بعيدا عن بغداد من سنة ( ٣٥٥هـ ) حتى سنة ( ٣٥٨هـ ) ، إذ عاد اليها خائبا من رجائه بعد أن طال وقوفه بباب ابن العميد .

ولم يكن راضيا عن عمله بالوراقة وكثير الشكوى منها ، لذا فكّر أن يضيف إليها بعض المؤلفات يكتبها ويهديها الى بعض الأعيان من ذوي المناصب الكبرى ، ومن أوائل ما ألفه ( البصائر والذخائر ) الذي نشره الدكتور ابراهيم الكيلاني بدمشق في سنة أجزاء .

وهذا الكتاب على طريقة الجاحظ في كتابه ( البيان والتبيين ) ، ويحمل كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، وأقوال النساك وأشعار الشعراء وكلام الحكماء من الفرس واليونان والهند .

ثم يلتقي التوحيدي بالصاحب بن عباد ، فيعرض عليه خدماته ، ويكلفه بالوراقة له والنسخ ، ويظلّ معه مدة ثلاث سنوات حتى سنة ( ٣٧٠هـ ) ، وكان يحضره مجالسه وعلى موائده ، فيتدخل فيما يكون من حديث ببجاجة وزهو ممّا ملأ نفس الصاحب عليه غضبا ، فبرم به برما شديدا ، وأبو حيان لا يتراجع ، بل يزداد وقاحة ، ففسد الأمر بينهما فسادا لا يمكن إصلاحه ، فأخذ الصاحب يصدّ عنه ويجفوه، وحرمه من مكافأته على ما ينسخ ، إذ حبس عنه أجرته ، ممّا اضطرّ أبا حيان أن يرحل عنه بعد عمل متواصل لمدة ثلاث سنين من دون أن يأخذ منه درهما كما قال .

وبمجرد أن عاد أبو حيان الى بغداد انتقم منه ومن ابن العميد شرّ انتقام بتأليفه فيهما كتابه ( مثالب الوزيرين ) الذي نشره بدمشق الدكتور ابراهيم الكيلاني ، وهي صحف هجاء لاذعة للوزيرين الكاتبين المشهورين ، إذ تحامل عليهما تحاملا مسرفا وتجنّى عليهما تجنّيا قبيحا .

ومن مؤلفاته الأخرى كتاب ( الهوامل والشوامل ) ، والهوامل أسئلة لأبي حيان في الفلسفة والطبيعة والسلوك واللغة ، والشوامل إجابات بديعة لابن مسكويه، وقد نشره أحمد أمين والسيد صقر في القاهرة .

ومن كتبه أيضاً رسالة ( الصداقة والصدق ) ، طبعت باستانبول والقاهرة ، وكذلك كتاب ( المقابسات ) ، وطبع طبعات مختلفة في بومباي والقاهرة وبغداد ، وكتاب ( الإشارات الإلهية ) ، المطبوع في القاهرة وبيروت ، وأكثره مكتوب في صورة رسائل موجّهة الى بعض الضالين عن طريق الهداية الإلهية والى مجموعة من المتصوّفة .

وبعدّ أبو حيان التوحيدي أكبر أدباء العراق في هذا العصر من القرن الرابع الهجري الى القرن الثالث عشر ، ويمتاز أدبه بتنوّع موضوعاته ، إذ تناول فيه - كما في كتابه الإمتاع والمؤانسة - كثيرا من جوانب التفلسف العميق في الإلهيات والطبيعات والإنسان والأخلاق والنفس ، فأدبه ليس لفظيا ، بل هو أدب يحمل زادا كثيرا من المعاني ، وقد أشار مرارا في ( الإمتاع والمؤانسة ) وغيره من كتبه الى أنّ واجب الكاتب أن يعنى بالمعاني كما يعنى بالألفاظ ، وهو شيء طبيعي لمن تمثّل مثله ثقافة زمنه على اختلاف ألوانها ، فقد استوعبها استيعابا رائعا ، وصدر عنها في كتاباته صدورا طبيعيا .

## الروب العربي في العصر العباسي

---

وهو يعتمد في اسلوبه التألوفي الازدواج ومعادلاته الموسيقية ، هو وما قد يلتحم معه من السجع ، كما يعتمد التفريعات في المعاني والتوليدات والمقابلات والاستعارات مما يروع قارئه روعة شديدة ، بل مما يمتّع سمعه وعقله وقلبه متعة كبيرة .